أنموذج التفسير المصلحي لفقه المتغيرات والمستجدات

(التفسير السياسي للدين)

ورقة عمل حاضر بها

معالي الدكتور

توفيق بن عبدالعزيز السديري

نائب وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد

١٤٣٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد:

فإن هذه الورقة هي من باب المراجعة الفكرية لمسار الفكر الإسلامي المعاصر، علّنا نصحح المسار، ونضع أقدامنا على الطريق الصحيح، والنهج القويم، ونقصد بالتفسير المصلحي لفقه المتغيرات والمستجدات في الإسلام بتفسير الإسلام من خلال الآثار المصلحية النفعية، والنتائج المادية والمعنوية، أي تفسير ما جاءت به الشريعة من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق عبر هذا المنظور، الذي يرى أن غاية الدين في المنفعة والمصلحة المترتبة على تطبيقه، وبالتالي فهو يرى أن العبادات الخالصة لله تعالى كالصلاة والصيام ما هي إلا وسائل وأدوات لتحقيق تلك الغاية، إما بنفسها، أو بالثمار والنتائج المرتبة عليها، لهذا يتم التركيز على إبراز منافعها الجسدية والنفسية والصحية والاجتماعية.. إلخ، وجعلها أساساً لحكمة التشريع ومقاصده.

[المراد بتفسير الإسلام]

ونقصد بتفسير الإسلام أو تفسير الدين المفهوم الكلي للوحي والرسالة والنبوة والشريعة والعبادة واليوم الآخر، وليس المقصود تفسير آية أو جملة آيات أو شرح حديث أو بيان حكم معين، وإنما المقصود معرفة العلل والحكم والمقاصد والغايات للدين كله، أو لباب من أبوابه، أو حكم من أحكامه،

وهذه المعرفة تتكون من مجموع العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق المتقررة بأدلة الكتاب والسنة التفصيلية.

[التفسير السياسي للإسلام: نشأته وتعريفه]

ومن أهم وأخطر أنواع التفسير المصلحي للدين التي سادت وانتشرت خلال المائة سنة الماضية هي التفسير السياسي للإسلام، هذا التفسير الذي كان له آثاره التي رسمت توجه كثير من المسلمين في هذا العصر، وبنيت عليه نظريات وآراء واجتهادات، وأريقت بسببه دماء معصومة، وقامت من أجله حروب وثورات.

فمن المعلوم أن البلاد الإسلامية مرّت بعد عصور ازدهارها بعصور انحطاط وانكسار وتخلف، مما جعل الغير يطمع فيها وفي ثرواتها ومقدراتها، فأطبق الاستعمار على جزء كبير من البلاد الإسلامية، وحاول المسلمون رغم ضعفهم مقاومة هذا الاستعمار مادياً ومعنوياً، وعندما بدأت غمامة الاستعمار تنجلي، حاول المسلمون تلمّس طريق النهضة من جديد، ولكنهم مع الأسف تخبطوا في هذا الطريق، فمنهم من حاول تقمص الحضارة الغربية بعجرها وبجرها وفلسفتها ومنطلقاتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومنهم من اتجه إلى أقصى اليسار، ناهجاً نهج الماركسية وتفسيرها للتاريخ، ومنهم من اتجه اتجاهات أخرى لم يكن لها تأثير قوي في الواقع الإسلامي، إنما برز من اتجه لنظرية التفسير السياسي للإسلام -الذي هو محل بحثنا في هذه

الورقة–، فهذا الاتجاه هو الذي ساد في أروقة الفكر الإسلامي المعاصر، وانطلقت منه الحركات الإسلامية المختلفة خلال قرن من الزمن، وهو التفسير الذي يجعل كما ذكرنا العقائد والعبادات وجميع شرائع الإسلام وسائل وأسباب لإقامة النظام السياسي الذي يحقق العدل المادي والسعادة الدنيوية بين البشر، ويعرّف وحيد الدين خان في كتابه "التفسير السياسي للدين" هذا النوع من التفسير: «بأنه يفسر الدين بتفسير جامع، وصورة كلية، تكون فيه الناحية السياسية وحدة أساسية للدين، لا يعرف هدف الرسالة النبوية بدون السياسة ولا يفهم المعنى الكامل للعقائد ولا تظهر أهمية الصلاة وسائر العبادات، ولا تقطع مراحل التقوى والإحسان، ولا يعقل الهدف من الإسراء والمعراج إلا بالسياسة، وجملة القول فإنه بدون السياسة يبقى الدين كله فارغاً، وغير قابل للفهم».

وفي رأيي أن هذا التفسير النفعي المصلحي تفسير منحرف، يرجع إلى أصلٍ كلي واحد في فهم الدين، ألا وهو أن الغاية الرئيسة للدين هي إصلاح الدنيا وإعمار الأرض، ومن هذا الأصل انطلقت كل التفاسير المصلحية النفعية، ومنها التفسير السياسي، حيث يرى أصحاب هذا التفسير أنه هذه النفعية المصلحية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الانقلاب السياسي وتغيير نظام الحكم وإقامة الحكومة العادلة، وكما أشرنا أن الحركات الإسلامية المعاصرة انطلقت من هذا التفسير فأضاعت على نفسها وعلى المسلمين فرصة

النهوض وفق الأصل الذي جاء به الوحي، ولن اتطرق بالتفصيل لهذه الحركات ورموزها ما دام أننا عرفنا أنها تسقى من ماءٍ واحد، وتنطلق من أصلٍ واحد، وهو أن الغاية هي التمكين في الأرض، وليس تعبيد الناس لرب العالمين، بينما هذا التعبيد هو الأصل الذي كان يجب أن تنطلق منه هذه الحركات لأنه الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، ويأتي التمكين تبعاً.

فالإسلام دين الله الخاتم للبشرية جمعاء ما بقيت على هذه الأرض حياة، لهذا تكفل الله تعالى بحفظه وصيانته كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر:٩]، وكتب له العلو والظهور كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[الصف:٩]، وجعل الوحي ميزان الحق والهدى والخير كما قال جل شأنه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[المائدة:٤٨]، فهذا الدين لا ينسخ أبداً، ولا يصيبه من التحريف والتبديل ما أصاب الكتب والشرائع السابقة، ولكن كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١١/ ٤٣٥): «لكن يكون فيه من يدخل فيه من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به

الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل فينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين؛ ليحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون».

[أسباب نفوذ خطأ التفسير السياسي للإسلام]

ولا شك أن التفسير المصلحي السياسي للإسلام كما أشرنا هو روح الحركة الإسلامية المعاصرة، ويكمن خطره في انحرافه عن أصل الدين، وانحراف دعوته عن مسارها الصحيح، وقد كان لهذا آثار سيئة في عقائد المسلمين وعباداتهم وأعمالهم خلال العقود المتأخرة، ولكن مصداقاً لما أشرنا له أعلاه من قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقد وفق الله علماء السنة إلى رد البدع والانحرافات الجديدة، والكشف عن عوارها، والتحذير من عواقبها، مما كان له الأثر في حفظ دين الإسلام من التحريف والتبديل، وذلك منذ وقت مبكر، ولكن بالرغم من تلك الجهود المباركة فإنها بقيت في دائرة البحث في المخالفات الجزئية والتفصيلية، وبقي التفسير المصلحي السياسي للإسلام بنظريته الكلية وجذوره الفلسفية لأسباب عديدة، منها:

[١] انشغال العلماء بالعلم الصحيح والهدي النبوي ودعوة الناس إليه وتربيتهم عليه عن الخوض في القضايا الفلسفية والفكرية والثقافية التي أثارتها الحركة الإسلامية المعاصرة.

[٢] غموض نظرية التفسير المصلحي السياسي للإسلام لدى كثير من الناس، وتلطف أصحابها في بثها في الأمة، واستعمالهم في ذلك أساليب أدبية محتملة مشتبهة.

[٣] حسن الظن بالمسلمين خاصة الدعاة والكتاب الإسلاميين الذي اشتهرت عنهم الدعوة إلى تحكيم الشريعة، ولقي بعضهم في ذلك أذى بعض الحكومات الفاسدة، فسجن بعضهم ونفي بعضهم وقتل آخرون، فلم يكن من اليسير على العلماء أن يظنوا فيهم هذا الانحراف في تفسير الدين، خاصة أن اطلاعهم على كتاباتهم كان اطلاعاً مجملاً، وقد ظهر هذا الأمر جلياً في الكتاب الذي بعثه العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله إلى الاستاذ المودودي رحمه الله، بعد أن أخبره بعض العلماء بأن المودودي يفسر الطاعة بالعبادة، فاستعظم ابن باز صدور هذا القول من المودودي فكتب إليه كما ورد في "مجموع فتاوى ومقالات متنوعة" لابن باز رحمه الله (٥/ ١٧-١٨) يقول: «وما أظن هذا الأمر يخفى على من دونكم من أهل العلم، لكن لما كان هذا الأمر قد أشاعه عنكم من أشاعه، وجب علي أن أسألكم عنه وأطلب من فضيلتكم تفسير القول فيه حتى ننفي عنكم ما يجب نفيه، ونداف عنكم على بصيرة، ونوضح الحق لطالبه فيما يتعلق بالجماعة الإسلامية، وإن كان ما نسب عنكم هو كما نسب تذاكرنا فيه وبحثناه من جميع وجوهه وناقشنا مواضيع الإشكال بالأدلة، والحق هو ضالة الجميع».

[بداية اكتشاف خطأ التفسير السياسي للإسلام]

وأود أن أشير هنا أن هذه الأسباب وغيرها هي التي أدت إلى عدم انتباه العلماء في العالم العربي إلى هذه القضية المهمة، بينما نجد أن الحال مختلف في بلاد الهند، حيث كان الخطاب الحركي أكثر وضوحاً، والعلماء هناك أكثر معرفة بالفلسفة والمذاهب العصرية، نظراً لما في تلك البلاد من تعدد في الأديان والفرق والثقافات واللغات، لهذا اكتشف عدد منهم هذا الانحراف في وقت مبكر وواجهوه بالنقد والتحذير، ومنهم:

[١] العلامة المفكر الأستاذ وحيد الدين خان، كان من أعضاء الجماعة الإسلامية في الهند، وبدأ باكتشاف الخطأ في منهج المودودي سنة (١٩٥٩م)، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين، وتحاور مع كثير من قيادات الجماعة حول ذلك، وجرت بينه وبين المودودي مراسلات، فلم يجد قبولاً للنصيحة، ولا استعداداً للمراجعة والتصحيح، فاستقال من عضوية الجماعة آخر سنة (١٩٦٢م)، وسجل قصته مع الجماعة الإسلامية، وحواراته مع المودودي وغيره، وأورد الوثائق الخاصة بذلك في كتابه الكبير "خطأ في التفسير" وقد طبع باللغة العربية (١٩٩٢م) في (٣٢٠) صفحة، ونظراً لكبر حجم الكتاب، فقد لخّص موضوعه وفكرته الأساسية في رسالة موجزة سماها: «التفسير السياسي للدين»[١].

---

(١) انظر منشورات مركز دراسات تفسير الإسلام لعبدالحق التركماني.

[٢] العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي (١٣٣٢-١٤٢٠/ ١٩١٣-١٩٩٩) رحمه الله تعالى، تنبه إلى خطر التفسير السياسي في وقت مبكر، وهو في هذا أسبق من الأستاذ وحيد الدين خان، لكن للأخير الأوليَّة في التأصيل والتقعيد للمسألة، ألقى الندوي عدّة محاضرات ضمَّنها نقد هذا المنهج، وألَّف لذلك كتابه: "الأركان الأربعة" (١٣٨٧/ ١٩٦٧)، ثم كتابه: "التفسير السياسي للإسلام" (١٣٩٩/ ١٩٧٩)[١].

[٣] العلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري (١٣٤٥-١٤٢٠/ ١٩١٧-٢٠٠٠) رحمه الله، عُني عناية بالغة بنقد المودودي وجماعته في تفسير العبادة بالطاعة، وغلوّهم في ذلك، وكتب في ذلك (قبل ١٣٩٢/ ١٩٧٢) إلى كثير من العلماء، مبيناً هذا المنهج الجديد، ومستفتياً لحكمهم فيه، منهم: الشيخ عبدالعزيز بن باز، فاهتمّ الشيخ بذلك، وكتب كلمة في بيان معنى لا إله إلا الله، كما كتب إلى المودودي يستوضح منه رأيه في تفسير العبادة، ثم ألّف المليباري رسالة: "معنى لا إله إلا الله" نشرها في صيغتها الأولى سنة (١٤٠٥/ ١٩٨٥) وفي صيغتها الثانية بطبعة خاصة سنة (١٤١٢/ ١٩٩٢)[٢].

---

[١] السابق.

[٢] السابق.

المنهج الشرعي لتفسير الإسلام:

من نافلة القول أن الأصل في تفسير الإسلام والحجة التي لا خلاف بين المسلمين فيها هي الأدلة الشرعية المعتبرة، يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: «فمقاصد الشرع تعرف بالكتاب والسنة والإجماع، وكل مصلحة لا ترجع حفظ مقصود فُهم من الكتاب والسنة والإجماع وكانت من المصالح الغريبة التي لا تلائم تصرفات الشرع فهي باطلة مطرحة، ومن صار إليها فقد شرع، كما أن من استحسن فقد شرع، وكل مصلحة رجعت إلى حفظ مقصود شرعي علم كونه مقصوداً في الكتاب والسنة والإجماع فليس خارجاً من هذه الأصول»[1].

فالتفسير الأمثل للإسلام هو تفسيره بنفسه، أي بأصول الإيمان وأركان الإسلام؛ لأنها لب الإسلام وجوهره، وحقيقة الدين ومقصده، وقد أفرد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في كتابه "فضل الإسلام" فصلاً سماه "باب تفسير الإسلام"، وذكر قول الله تعالى: ﴿**فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِّ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[آل عمران: ٢٠]، وذكر أيضا تعريف الإسلام في حديث سؤال جبريل عليه السلام حيث قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم**

[1] المستصفى (ص: ١٧٩).

الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، وحديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، وحديث: «**الإسلام أن يسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**»، فعُلِم من صنيع الشيخ رحمه الله تفسير الإسلام بأصوله وأركانه وأحكامه.

ومن نظر في دعوة الأئمة المجددين والعلماء العاملين والدعاة المصلحين ودرس أعمالهم وتأمل آثارهم منذ القرون المفضلة الأولى حتى يومنا هذا وجد أنهم سلكوا هذه الطريقة في بيان حقائق الدين، وغرس معانيه في النفوس، وتربية الأجيال على التمسك به والعمل بأحكامه، وهذا المنهج الشرعي الممتثل لأمر الله عز وجل، والسائر على منهاج الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فنصوص القرآن والسنة دالة بمجموعها على الغاية من الخلق والدين والعبادة، فالغاية من خلق الجن والإنس هي عبادة الله، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[البينة:٥]، والغاية من إرسال الرسل والأصل الذي قامت عليه دعوتهم بيّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا**

فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، والأدلة حول بيان هذه الغاية وهي تحقيق معنى لا إله إلا الله كثيرةٌ جداً.

[كيف تشكّل التفسير السياسي للإسلام؟]

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بإلحاح شديد هو: كيف تشكّل التفسير المصلحي السياسي للإسلام لدى الحركة الإسلامية المعاصرة وانتشر تبعاً في الفكر الإسلامي المعاصر؟

وللإجابة عن هذا السؤال، أؤكد على ما أشرت إليه سابقاً حول ما كانت تعانيه البلاد الإسلامية قبل مائة عام وذلك في أواخر حكم الدولة العثمانية، من حالات الجهل والتخلف والضعف والانحطاط، وفي إزاء ذلك كانت أوروبا قد قطعت أشواطاً كبيرة في طريق العلم والمعرفة، والتقدم المادي، والإصلاح السياسي، والاجتماعي، وبناء الدولة الحديثة، ومن موقع الضعيف المغلوب، وبنفسية المنهزم، فتح المسلمون أعينهم على العالم الجديد بصورته المجمّلة، التي تخيل للمرء جمال ما يرى وحسنه وعدالة نظمه، أقول من هذا المنطلق جاء تأثر الكتّاب والمفكرين المسلمين المعاصرين بأفكار ونظريات الغرب نتيجة طبيعية للاحتكاك بالحضارة الغربية التي فرضت وجودها على العالم، من خلال عوامل متعددة منها: القوة المادية، والنهضة الصناعية، والتوسع والجبروت الاستعماري، ونتيجة حتمية لقلة العلم الشرعي الذي هو مكمن الزلل والانحراف الفكري على مرّ التاريخ الإسلامي.

ويمكن أن نسلسل تاريخ التفسير المصلحي السياسي للدين في هذا العصر من بذرته الأولى لدى **جمال الدين الأفغاني** الذي كان وثيق الصلة بالفلسفة والفكر الغربي والحركات السياسية والجمعيات الماسونية التي تمثل في جملتها الفلسفة الغربية في الموقف من الدين، فلقد عمل الأفغاني على نشر نظريته بين المسلمين، المتمثلة في أن مشكلتهم في التخلف المادي، وأن مخرجهم منها هو إتّباع سنن الغرب، وسعى لتحقيق ذلك من خلال العمل السياسي، وتحديداً الثورة السياسية، وكانت هذه هي البذرة الأولى للتفسير المصلحي السياسي للإسلام، وقد فشل الأفغاني سياسياً؛ نظراً لمواجهة بعض فقهاء عصره لدعوته، لكنه نجح على المستوى الفكري، يقول الدكتور فهمي جدعان في كتابه "أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث": «وكان ملهماً لمعظم الحركات الإسلامية التي ظهرت في العالم الإسلامي حتى الحرب العالمية الأولى، أمّا الكتاب والمفكرون الإسلاميون الذين عاشوا بين الحربين فقل أن أفلت أحد منهم من تأثيره أو توجيهه أو الإحالة إليه»؛ لهذا انتشر فكره حتى ممن لم يحمل دعوته، حيث تأثروا بفكره، وتسربت إليهم فكرة التفسير المصلحي للدين، مما كان له تأثيره على منهجهم الفكري والدعوي والإصلاحي، وبالرغم من ذلك فقد بقي فكره نخبوياً، ولم يجد طريقه إلى عامة المسلمين، حتى ظهر (**حسن البنّا**)، الذي أسس (**حركة الإخوان المسلمون**)، ونقل نظريات الأفغاني الفكرية حول الدين والإصلاح والتغيير

من المجال العلمي إلى مفاهيم ومبادئ عامة، وحركة شبابية وشعبية واسعة، بعيداً عن العلماء، وكان حسن البناء يصرّح بإعجابه بالأفغاني، ويشير إلى سيره على نهجه، فيقول في "مذكرات الدعوة والداعية" (ص ١٨٢): «بنى مصطفى كامل وفريد ومن قبلهما جمال الدين والشيخ محمد عبده نهضة مصر، ولو سارت في طريقها هذا ولم تنحرف عنه لوصلت إلى بغيتها، أو على الأقل لتقدمت ولم تتقهقر، وكسبت ولم تخسر».

ويقول الدكتور طه جابر العلواني وهو من الشخصيات العالمية في الحركة الإسلامية المعاصرة، وأحد مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا في كتابه "مقاصد الشريعة": «أن قيادة الحركة الإصلاحية المعاصرة آلَ إلى **جمال الدين الأفغاني**، واجتهد تلميذه **محمد عبده** في نشرها في مصر، وإدخالها في الأزهر، فووجه برفض الفقهاء»، واستمر قائلاً: «ولمّا آلَ الأمر إلى قيادة الحركة الإسلامية المعاصرة التي تبنت تراث الإصلاحيين وأضافت إليه، وقامت بتفعيله، وقررت تجاوز الفقيه العالم التقليدي، وإذا بمشعل الدعوة الإسلامية المعاصرة يحمله مدرس من خريجي دار العلوم في مصر، وهو الأستاذ **حسن البنّا** رحمه الله، ويحمله في القارة الهندية كاتب معروف وهو الأستاذ **المودودي** رحمه الله، متجاوزين بذلك العلماء والفقهاء والأزهر الرسمي في القاهرة ودار الفتوى والمفتين وندوة العلماء في الهند، وأبا الكلام آزاد، وعلماء حيدر آباد، وفي أيران -وان اختلف الحال- قادت

حركات الإصلاح علماء وفقهاء، ولكنهم ميزوا أنفسهم عن التقليديين، الذين كثيراً ما أطلقوا عليهم (فقهاء الحيض والطهارة والنفاس)، وسوى ذلك من ألقاب؛ للتهوين من شأنهم، ولكي لا تقف قضية المشروعية عقبة أمام الدعاة المفكرين -أعني مشروعية الحديث عن الإسلام أو النطق باسمه- فقد أكثروا الحديث في أدبياتهم عن نفي مؤسسة (رجال الدين)، ومارسوا التوكيد المستمر على أن طبيعة الإسلام لا تتقبل فكرة (اكليروس) أو (رجال الدين)، فكل مؤمن هو رجل دين، وكل ملتزم بالإسلام هو رجل دين، وأما العلماء والمشايخ والمفتون فهم موظفون رسميون، وأناس مهنيون متخصصون في قضايا محددة، ولهم تخصصات يحتاجها الناس في نكاحهم وطلاقهم ومواريثهم ووفياتهم وتقاضيهم وسواها، وهم ليسوا حجة على أحد، ويمكن لأي أحد أن يدرس ما درسوه، فيفتي، ويتحدث عن الإسلام ما يريد، فليس شيء يمكن أن يحتكره العلماء، أو يحال بين الناس وبين تعاطيه.

وبالفعل سارت الحركات الإسلامية المعاصرة بعيداً عن العلماء والمشايخ، وبقيت تنظر إليهم نظرةً فيها الكثير من الحذر والتوجّس حتى المشايخ والعلماء في (الحركات الإسلامية الإصلاحية) المعاصرة، خاصة في أطوار النشأة والتكوين، يعدون بعدد الأصابع.

ومن هذه الشهادة للعلواني يتضح بأن حسن البنّا أحيا دعوة الأفغاني وسار بها بعيداً عن ركب العلماء، إضافةً إلى صغر سنه - حيث كان عمره

اثنين وعشرين سنة -، وقلة علمه الشرعي، وتأثره بالأفكار الشرقية والغربية السائدة في ذلك الوقت، هذا كله أدى إلى تهيئة الأسباب لتبلور التفسير المصلحي السياسي للإسلام لديه، لا سيّما بعد سقوط الدولة العثمانية، وشعور كثير من المسلمين بفراغ سياسي لم يعتادوه، وإنشاء البنّا لحركة الإخوان المسلمين التي قامت على هذا التصور، الذي جعل قضية السلطة السياسية والحكم والاجتماع والاقتصاد وإعمار الأرض وإقامة العدل بين الناس في شؤون الحياة الدنيوية هي القضية المركزية للدين كله وهي الغاية والهدف من النبوة والرسالة والعبادة والشريعة، بل حتى البعث والنشور والجنة والنار.

[ظهور التفسير السياسي للإسلامي في بلاد الشرق]

وإذا انتقلنا إلى شرق الكرة الأرضية، حيث الهند مركز ثقل المسلمين هناك، نجد عوامل ظهور التفسير المصلحي السياسي للإسلام أكثر وأقوى؛ لاتصال المسلمين هناك الوثيق بالفكر الغربي وتحدياته، بسبب طول فترة الاحتلال البريطاني، خاصةً بعد فشل ثورتهم وتمكن الإنجليز من القضاء على الحكم الإسلامي في الهند سنة (١٨٥٧م)، حيث نشأت عدة جماعات وتوجهات لمقاومة الاحتلال، وإصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم، ورأى العلماء في ذلك الوقت ضرورة الاستمرار في الدعوة والتعليم؛ للمحافظة على دين المسلمين، ومواجهة مخططات المستعمر، التي ترمي إلى تدمير هويتهم وكيانهم، ويمكن أن نوجز هذه الجهود في أربعة اتجاهات:

[١] علماء الحنفية الصوفية الذين أسسوا جامعة دار العلوم في (ديوبند) سنة (١٨٦٦م).

[٢] علماء أهل الحديث ولهم مآثر عظيمة في الجهاد والدعوة والإصلاح، ومواجهة الحركات الهدامة عبر جامعاتهم ومدارسهم ومجلاتهم ومؤلفات علمائهم الكثيرة، وتأخروا في تأسيس جمعية رسمية باسمهم إلى سنة (١٩٠٦م).

[٣] جامعة (عليكرة) الإسلامية التي أسسها سيد أحمد خان سنة (١٨٩٥م) وكان نهجه عقلانياً تغريبياً موالياً للمستعمر.

[٤] ندوة العلماء في (لكهنؤ) التي انشئت سنة (١٨٩٣م)، ويمثل منهجها منهجاً وسطاً بين الديوبندية والحداثة.

وهذه الاتجاهات كان لها علاقة بالشأن السياسي والاجتماعي لكنها لم تكن تتبنى السياسة فكراً ومنهجاً وهدفاً لها، إلا أن نبتةً جديدة بدأت تنمو على يد **أبي الأعلى المودودي** المولود سنة (١٩٠٣م) والمتوفى سنة (١٩٧٩م)، هذه النبتة أخذت اتجاهاً مغايراً لكل هذه المدارس، حيث بدأ المودودي بتأسيس منهج ودعوة جديدة تحتل السياسة هدفها المركزي، وكما رأينا أن **حسن البنّا** في مصر قد ظهر من خارج المنظومة الفقهية والعلمية، فكذلك كان **المودودي** في الهند، فلم يدرس على العلماء، واكتفى بتعليم والده له في البيت، ولم يكمل دراسته النظامية، بل اعتمد على مواهبه ومهاراته الذاتية، فتعلم اللغة

الانجليزية، وعمل صحفياً، وانخرط في الشأن العام والعمل السياسي، ثم أنشأ الجماعة الإسلامية سنة (١٩٤١م).

كان الفيلسوف والشاعر **محمد إقبال** أبرز ملهمي المودودي، وهذا يكشف أحد أهم أسباب تكون نظرية التفسير المصلحي السياسي عنده، فقد كان إقبال من أبرز المتأثرين بدعوة **سيّد أحمد خان**، ودعوة **جمال الدين الأفغاني**، وبفكر الفلاسفة القدماء والمعاصرين في نظرتهم للتاريخ والحضارة، فقد كان إقبال يمتدح سيّد أحمد خان، ويعتبره في عداد المصلحين، ويصف جمال الدين الأفغاني بالمجدد، ويقول عنه: «هو المؤسس الحقيقي لمشروع آمال المسلمين ونشأتهم الثانية في هذا العصر، فإذا لم يكن هناك شعب من الشعوب قد لقبه بالمجدد، أو أن الأفغاني نفسه لم يدّعي بأنه مجدد فإن ذلك لا يبعده عن كونه مجدداً في نظر أهل البصيرة والدراية»[1].

ومعروف أن محمد إقبال درس الفلسفة على يد المستشرق الانجليزي (توماس آرنولد) في كلية (لاهور)، ثم التحق بجامعة (كامبردج) في بريطانيا ونال منها شهادة في الفلسفة والأخلاق، ثم درس في جامعة (ميونخ) في ألمانيا ونال منها درجة الدكتوراه في الفلسفة، وإقبال يجمع في منهجه الفكري عن الإسلام بين التصوف والفلسفة العقلانية والمادية، وله في ذلك ضلالات كبيرة[2].

---

[1] انظر: "تأثير فكر الأفغاني في فلسفة إقبال" للدكتور محمد أمان صافي.

[2] انظر: "النزعة المادية في العالم الإسلامي" للأستاذ عادل التلّ.

وهنا تبيّن لنا أن نشأة التفسير المصلحي السياسي للإسلام في مصر والهند ترجع في جذورها إلى الاتجاه الفكري الذي ظهر في البلاد الإسلامية على يد الأفغاني وسيّد أحمد خان وأمثالهما نتيجة الاحتكاك بالفكر الغربي وحضارته والتعرض للاستلاب الحضاري تجاه المستعمر وقوته وثقافته المتغلبة، وقد تبلور هذا الفكر عبر قرن الزمان إلى أن اصبح واضح الجلاء في منهج الحركات الإسلامية المعاصرة وممارساتها، نتيجةً لتراكمات وتجارب ووقائع امتدت عبر هذا القرن، ولا نظن أن الأفغاني أو سيّد أحمد خان كانا يتصوران أن فلسفتهما في تفسير الدين ستصل يوماً إلى ما نراه من جماعات التطرف والغلو والعنف وتكفير المجتمعات التي تترجمها (داعش) في هذه الأيام.

[بداية الظهور الجلي للتفسير السياسي للإسلام]

لقد كان الظهور الجليّ للتفسير المصلحي السياسي للدين في هذا العصر **للمودودي**، فقد تلبّس هذا التفسير فكره، ووجه مشروعه الإصلاحي، وبثّه بقلمه السيّال في جميع كتبه ومقالاته، تصريحاً أحياناً، أو تلميحاً وإشارةً أحياناً أخرى، وقامت الجماعة الإسلامية التي أسسها على فكره، فتمكن بهذه الوسائل أن ينشر هذه النظرية الجديدة في تفسير الدين في البلاد الإسلامية كلها، وتأثر به كتاب ومفكرون ودعاة أبرزهم الأستاذ **سيّد قطب**، والمودودي كان منافحاً عن الإسلام، رافضاً لفلسفة الإلحاد في التفسير الأخلاقي أو المصلحي للدين، كونه صادق الغيرة لدينه، ولكن منازلته للفكر الغربي من

غير حصانة علمية شرعية قوية كانت السبب في تأثره بهذا الفكر، فأراد أن يقدم بديلاً إسلامياً للمدنية الغربية، وهذا البديل هو النظام الإسلامي لبناء المجتمع والدولة، إلا أنه نقل ذلك النظام من منزلته المقررة في الدين بأنه جزء من الشريعة العملية إلى أعلى مراتب الدين، بل زعم أن تحقيق ذلك النظام (أي إصلاح المجتمع وإقامة الدولة) هي الحكمة المقصودة والغاية من الوحي والكتاب والشريعة والعبادة، وبدونه يصبح الدين بلا معنى، وقد نبّه وحيد الدين خان إلى أن المودودي في ذلك أخذ قالب النظرية الماركسية في تفسير الدين والتاريخ والاجتماع والعمران، وتخلّص من مضمونها الإلحادي، ثم ركّب عليها المضمون الإسلامي، ومن أخطر ما توصّل إليه المودودي هو تقريره في أدبياته لمفهوم العبادات بأنها وسيلة للتربية لغاية أكبر وهي إعمار الأرض وليس تعبداً محضاً، وتقريرات المودوي لمفهوم العبادة هي التي أوحت إلى سيّد قطب بنظرية الحاكمية وتفسير شهادة التوحيد بها، وبناءً عليها قرر أن لا معنى للإسلام والعلم والدعوة والفتوى ما لم يصل الإسلام إلى سدّة الحكم وإقامة دولته المنشودة؛ لهذا استخف بالعلماء، وكفّر المجتمعات الإسلامية، ودعى إلى تكوين عصبة مؤمنة تتربى على مبدأ الحاكمية كما عرضها المودودي، ثم تنقضُّ على المجتمع الإسلامي بالثورة والانقلاب، فتقيم حكومة الإسلام ونظامه الاجتماعي، الذي من اجل إقامته خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة والنار، فهذا ما يصرح به سيّد

قطب في كلمة جامعة نقلها في كتابه "في ظلال القران" عن المودودي: «إنَّ غاية الجهاد في الإسلام هي هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه، وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها، واستبدالها بها، وهذه المهمة – مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام – غير منحصرة في قطرٍ دون قطر، بل مما يريده الإسلام، ويضعه نصب عينيه، أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة، هذه غايته العليا، ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره»، فسيّد قطب محكوم في نظرته بجميع حقائق الإسلام بفكرة الانقلاب لإقامة الدولة، بالرغم من أن كلامه بهذا الخصوص ليس صريحاً وصادماً مثل كلام المودودي إلا أنه يغرس نفس الفكرة في فهم القارئ عند تناوله للمفاهيم الأساسية للعقيدة والشريعة، وتوصّل بناءً على هذا الانحراف الخطير في فهم حقائق الإسلام ومراتب أحكام الديانة إلى تكفير المسلمين بما فيهم أولئك الذين يرفعون صوتهم بالأذان خمس مرات في اليوم، فقال في كتابه "في ظلال القران" عند حديثه حول (سورة الأنعام): «لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظلّ فريق منها يردد على المآذن: (لا إله إلا الله) دون أن يدرك مدلولها، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية الحاكمية التي يدعيها العباد لأنفسهم – وهي مرادف الألوهية– سواء ادّعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعية، أو

كشعوب، فالأفراد كالتشكيلات، كالشعوب، ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية، إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد الله، وتخلص له الولاء، البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات (لا إله إلا الله) بلا مدلول ولا واقع، وهؤلاء أثقل إثماً وأشد عذاباً يوم القيامة، لأنهم ارتدوا على عبادة العباد - من بعد ما تبيّن لهم الهدى - ومن بعد أن كانوا في دين الله، فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلاً أمام هذه الآيات البينات».

[مدلول لا إله إلا الله عند أهل التفسير السياسي للإسلام]

فمدلول واقع لا إله إلا الله في فكر سيّد قطب يقتصر على الأحكام المتعلقة بإقامة الحكومة والسلطة القادرة على تنفيذ مشروع إعمار الأرض الذي يعتبره الغاية من خلق الإنسان.

بينما نجد القرآن الكريم مليء بقصص الأنبياء مع أقوامهم ونتائج دعوتهم وأعمالهم ومدار دعوة الأنبياء على الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك والبلاغ المبين حتى تقام الحجة على الخلق.

[خاتمة في ذكر آثار التفسير السياسي للإسلام]

ونختم بأن لهذا التفسير المصلحي السياسي آثار خطيرة منها:

[١] أن فيه تحريف كلّي لأصل الدين وأساسه، وإفساد لهذا الأصل وهو إخلاص العبادة لله وحده.

[٢] أن فيه انحراف مسار الدعوة الإسلامية وأهدافها وغاياتها، حيث تم تهميش غاية هداية الخلق إلى الحق الذي هو شرط نجاتهم في الآخرة، وابرز مكانها الغايات المادية والنفسية والاجتماعية والمدنية والسياسية.

[٣] تحويل الدعوة الإسلامية من دعوة هدى ورحمة وصلاح وإحسان إلى دعوة مغالبة على الدنيا، مما يرسخ مفهوم صراع الحضارات.

[٤] الإخلال بمفهوم تحكيم الشريعة، بجعل مقصده الأعلى في النظام السياسي، وتهميش معناه الشامل للاعتقاد والعبادة والتديّن الفردي والسلوك الشخصي، بجعله من باب الوسائل المقصودة تبعاً لتحقيق النظام الاجتماعي.

[٥] أدى هذا التفسير لتعاظم ظاهرة الغلو في التكفير، وإنزال أحكام دار الكفر على البلاد الإسلامية.

[٦] التهوين من أمر الشرك في العبادة الذي هو أعظم الذنوب وأقبح المعاصي، فلا تجد لأصحاب هذا التفسير جهود في محاربة مظاهر الشرك

المنتشرة في بلاد الإسلام، فجهودهم متجهة لقضية الحاكمية بالمفهوم السياسي الضيّق.

[٧] هذا الانحراف في تفسير الدين جعل المسلمون يتخبطون تلمّساً لطرق إخراجهم من كبواتهم، وأهدر الكثير من الجهود التي لو بذلت في مكانها الصحيح لكان للإسلام والمسلمين شأن آخر اليوم بعد قرن من هذه الجهود، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد.

[٨] معرفة حقيقة التفسير المصلحي السياسي للإسلام يفتح آفاقاً واسعة لقراءة جديدة متعمقة لأدبيات الحركة الإسلامية المعاصرة المعتدلة والمتطرفة لتصحيح المسار والأخذ بأيدي بعضنا البعض لتحقيق مراد الله الذي من أجله أنزل الكتب وأرسل الرسل، والحمد لله رب العالمين[١].

---

[١] أصل هذه المحاضرة: ورقة عمل ألقاها معالي الدكتور توفيق بن عبدالعزيز السديري –نائب وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد– في الندوة العلمية تحت تنظيم اللجنة القافية بمهرجان الجنادرية في ١٩ جمادى الأولى ١٤٣٨هـ.

الفهارس

المراد بتفسير الإسلام	٢
التفسير السياسي للإسلام: نشأته وتعريفه	٣
أسباب نفوذ خطأ التفسير السياسي للإسلام	٦
بداية اكتشاف خطأ التفسير السياسي للإسلام	٨
المنهج الشرعي لتفسير الإسلام	١٠
كيف تشكّل التفسير السياسي للإسلام؟	١٢
ظهور التفسير السياسي للإسلامي في بلاد الشرق	١٦
بداية الظهور الجلي للتفسير السياسي للإسلام	١٩
مدلول لا إله إلا الله عند أهل التفسير السياسي للإسلام	٢٢
خاتمة في ذكر آثار التفسير السياسي للإسلام	٢٣
الفهارس	٢٥